حبيس بحيرة قدس

للاب هنري لامنس اليسوعي

معربة بقلم المعلم رشيد الخوري الشرتوني (تابع لما سبق)

. . . . . .

وفي مساء النهار عاد زين الى قصره عيياً من تعب القنص ومتأثراً مما تعرض له من الاخطار فجلس في الغرفة الكبيرة ليستريح. وكانت امرأتهُ وشقيقتها تشتغلان الى جانبهِ وطفلهُ المورَّد الخدَّين يلاعب على الارض فوق طنفسةٍ عجميَّة كلبةً اسمها «سارحة» من ظراف الكلاب السلوقيَّة ضامرة الحشى طويلة القد. ولم تكن اقلّ من مولاها لغوباً فاظهرت نفوراً من مداعبة الطفل وجعلت تبحث ولكن بلا فائدة عن محلّ تتمدَّد فيه وترقد براحة. وكانت ضوضاء البلدة قد سكنت فلا يُسمع من ناحية البحر سوى حسّ الامواج تتكسَّر على صخور الشاطئ ولا يأتي من ناحية البساتين غير شذًا ينعش القلب من ازهار الليمون

فمثل هذا المشهد يصوّر السعادة الهادئة التامَّة اعني سعادة العيلة التي يتوق اليها اصحاب الاعمال خاصَّةً. ولكن ما كل شيء يُحمل على ظاهرهِ لان الظواهر في كثير من الاحيان خدَّاعة

وكان القانص المنهوك يحب في ساعات الحياة البيتيَّة ان يسمع احاديث النساء وعلى الخصوص متى دارت سوق الحكايات واخذنَ — مع اهتمامهنَّ بالغزل ودواليب الحياكة — ينشدنَ الاشعار والقصائد المخبرة من مآثر الاولين

وكانت حنَّة صورة حيَّة لشقيقتها او بالحري كانت مُصغَّر رسمها لان ملامحها كانت اشدّ شحوباً واصفراراً وعينيها اعظم زرقةً ولون شعرها اقلّ إشباعاً. ونظراً لاعتدال قامتها لم تكن في شيء من فخامة منظر راحيل وحدة لحظاتها الخرَّاقة. بل كانت من الخفر والحياء في درجة متناهية حتى انها ما رفعت عينيها قط لتنظر في وجه انسان ولذلك ما كان زين يخاطبها مرةً حتى يحمرّ جبينها خجلاً. وحيث انها ما كانت تتوق الى الفخفخة ولا تسعى لها فكانت تجهل هل يقوى حضورها او حديثها على التأثير. . .

الّا انها كانت اذا رفعت صوتها بالغناء سابت الالباب واذا قصّت الحكايات والاخبار اوردتها بصوت رقيق ولهجة عذبة . وما كانت راحيل اقل منها براعة في تقطيع اوقات الفراغ بتسلية ولذّة . ولكن من غريب الاتفاق ان حنّة المشهورة بحيانهـا وخجلها لم تكن تنشد غير القصائد المخبرة عن مواقع الابطال ولا تقص غير اخبار المعارك الدمويّة والحوادث المخيفة بخلاف راحيل التي مع خيلائها وغطرستها كانت تنتقي الاخبار الباعثة على الحنو والشفقة والقصص المنبئـة عن الاحوال العيليّة والمحبة الطاهرة بين الزوجين . وتذكر هذا كلهُ عمدًا لعلّها تجد بهِ طريقًا يؤدي الى قلب زوجها الذي كان هو بل مقصدها في كل لفظة من الكلام الذي تروي بهِ قصص الماضين

وكان في صوتهـا شيء يعمل في القلب ويخرقهُ حتى يتّصل الى أقصاه وفي بعض الاحيان يمثل جميع حركات باطنها كما ان محيّاها يتخذ هيئة حبّ متوسّل باكيًا راغمًا عنهـا بغموم نفسها واكدارها . غير ان زينًا كان حتى ذاك الوقت يفضل سماع الحكايات المخيفة التي تقصها الصبيّة ولا يظهر التفاتًا الى القصص المؤثرة مهما كانت تحكيهِ قرينتهُ الفخور المزهوة في محبتها

وقد سبق البيان ان المودّة بين الزوجين كانت قد تضعضعت دعائمها وانحلّت عراها وبما انهُ يصعب غالبًا في مثل هذه الحوادث معرفة الاسباب الحقيقيّة الباعثة الى تنافر القلوب ويتعسّر الحكم بالتدقيق على دواعي المؤاخذات تعيّن القول ان ذلك كلهُ لا تتأتّى نسبتهُ الى احد الفريقين دون الآخر بل هو مشترك بينهما مثلما تؤيده التجربة في اكثر الاحيان

على اننا اذا لاحظنـا ما تزيّن بهِ الزوجان من اوصاف الاستقامة وكرم الطباع وسموّ العواطف لا نكاد نرى شخصين أفضل منهما حتى يعيشا متوافقين وسعيدين لان الشبه من هذا الوجه بين زين وراحيل كان تامًا كاملًا . اما من سائر الوجوه فلم يكن الامر كما قلنا فان راحيـل لكونها من سلالة البارونات آل لبرياك كما سرّ الكلام كانت بالطبع سريعة الانفعال رقيقة الحس ذكيّة الفؤاد فضلًا عن ان التعليم والتهذيب قد زاداها احساسًا وتأثرًا ولهذا كانت تتمعض دون قصد لعدم مشاهدتها في رجلها مثل ما فيها من الاذواق والخصال . على انهُ لم يكن يخطر لها ببـال ان تتخذ من مزاياها

هذه سبيلًا للإدلال على قرينها ولكنها من دون التفات جدّي الى شيء من ذلك كانت ترى ان مسافة بعيدة تفصلهُ عنها

واما زين فكان رجل نشاط وعمل ربيَ من حداثتهِ في ساحات الوغى فلم يكن يستطيع ان يفطن للاحزان الباطنة التي تؤلم نفس قرينتهِ الطاهرة. ومع احرازهِ درجة عالية من الحذق والفطنة كان يشعر بانحطاط معارفهِ عن معارفها التي شحذها العلم والدرس ولا يخفاك ان الرجال قلما يتساهون في مثل هذا الامر. وفي ذاك الزمان وخاصّة في البلاد الشرقيّة لم يكن الناس بالرغم عن تعاليم الانجيل قد تعوّدوا المساواة الواجبة ان تكون بين الزوجين المسيحيَّين

ثم ان زَيناً مع كونهِ رجلًا شريفاً خاصاً التعلّق براحيل لم يكن يطيق ان يرى منها اميالًا مفترقةً عن اميالهِ ومن ثم كان في بعض الاحيان يعزو الى غرابة طباعها او الى حب الفخفخة النسائيّة ما ليس هو في الحقيقة الّا نتيجة ما تحلّت بهِ من التهذيب الفائق الذي جعلها بمثابة امرأة مكمّلة ضلّت في بيداء القرن الخامس عشر وكانت احقّ بالقرن العشرين. ومن اجل هـذا ما طال الزمان حتى زال ما كان بينهما من الثقة والدالّة المتبادلة وحلّ بدلهُ ابتعاد القلوب وتنافرها بنوع ان كلًّا منهما كان يخشى ان يفاتح رفيقهُ بما عند نفسهِ

٤

سبق الخبر ان عيلة مقدّم البترون كانت جالسة ذاك المساء في الغرفة الكبيرة من القصر وتزيد الآن ان الصبيّة حنّة انقطعت هنيهةً عن العمل ثم رفعت عينيها الزرقاوين ملتفتةً الى شقيقتها كأنّها تريد استفهامها واخذت تحكي حكاية كانت قد طالعتها في بعض السير الافرنجيّة قالت:

حدث في احدى قرى بريتانيـة في يوم عيد جميع القديسين ان دقّاق الجرس — وكان اسمهُ كرنين — بعد ان استمرّ يقرع الجرس حتى الساعة العاشرة ليلًا من اجل نفوس المطهر التي كانوا يصنعون تذكارها في ذاك اليوم ذهب الى حجرتهِ فرقد. وكانت الريح وقتئذٍ تصفر صفيرًا وتحمل الورق المنتثر متلاعبةً بهِ في الجوّ. فما كان غير قليل حتى سمع الدقّاق أجراس القرية تُقرع فقال في نفسهِ: «ما هذا الّا وَهم». ثمّ حنى رأسهُ على الخدة وهو يقول: «قد اغلقت باب القبة باحكام ومفاتيحهُ في جيبي»

الّا ان الاجراس ما فتئت تدقّ فقام كونين من فراشه واشعل فانوساً وخرج في وسط الظلمة الحالكة وهو يقول: « هذه حيلة يحتالون بها عليّ » وكان في الليلة السابعة قد بارح القبة نحو الساعة العاشرة بعد ان افرغ آخر نقطة من زجاجة النبيذ فكان يمشي وفي اذنيه طنين وفي رأسه تمايل. وقد يمكن ان يكون اغلق باب القبة لكنهُ من الممكن ايضاً ان يكون قد دخلهُ احد اصحاب المجون على غير علم منهُ

فلمّا وصل الى فناء الكنيسة تسمّع فاذا الاجراس ساكنة هادئة والكنيسة قائمة ليس فيها ادنى بصيص ضوء فقال:

لا شك اني حالمٌ فالخمر التي شربتها مساء امس هي التي تدقّ في دماغي

وبينما هو يهمّ بان يعود سمع صوت الجرس جلياً يطنّ من خلفهِ فانتصب وقال:

هذا بلا ريب طنين الجرس ولا بدّ ان يكون احد في القبة

ثمّ انهُ رجع على عقبهِ بكل رباطة جأش وفتح باب الكنيسة وكانت مظلمة ليس فيها غير « الساهرة » وضوعة امام المذبح الكبير فكانت ترسل على الخورس نوراً مرتجفاً وتبعث على الجدران البيضاء ظلالاً كبيرة متحركة. وكانت حبال الجرس متدلية على يمين باب المدخل فالتفت اليها فرآها لا تتحرّك ومع ذلك كانت دقّات الجرس المحزنة متتابعة. فحينئذٍ ابتدأ القلق والاضطراب يداخلهُ وصمّم على ان يرتقي الى سطح الكنيسة ليطلع على الحقيقة ثم اخذ يتسلّق سلّماً ضيقاً تؤدي الى القبة فاذا كاد يثب فيها حتى نفحت الريح نفحة باردة حملت اليهِ دوي الاجراس واطفأت في الوقت نفسهِ فانوسهُ فخيّل لهُ الوهم انّ رجلاً ينزل من علُ وان وقع خطاهُ يدنو اليهِ شيئاً فشيئاً ثم سمع ان الحشيش صار قريباً منهُ فبسط ذراعيهِ كمن يريد ان يسدّ الممرّ على الآتي ولكنهُ لم يشعر الّا بريح باردة على يديه وبوقع اقدام من تحتهِ يبتعد عنهُ. فسار بسرعة لمطاردة الخيال الذي توهمهُ راقياً الى المذبح الكبير ولكنهُ ما لبث ان رآهُ قد انطفأ وزال بغتةً من امام ناظريه فوقف مذعوراً وقد كلّل العرق البارد جبينهُ واخذت الرجفة جميع اعضائهِ

ثم التفت الى الخزانة (سكرستيّة) وكان بابها مشقوقاً والساهرة تلقي عليهِ نوراً ضئيلاً فتخيّل لهُ انهُ يسمع فيها صوت تنهّد وحفيف ورق كما لو كان هناك شخص يقلب مُصحفاً. فتقدّم وجلا فشاهد على نور القنديل الموضوع امام المذبح الكبير كتاباً

ضخماً كان يعرفهُ ممدودًا على مائدة كبيرة وكان الكتاب المذكور سجلّ الاموات فحدّق النظر فيهِ وكان قد صحا من سكرهِ وزالت عنهُ نشوة الخمر فرأى مع العجب ان اوراق السجل تنقلب واحدةً بعد اخرى باصبع خفيَّة تحركها حتى اذا انتهت الى الورقة الاخيرة وقفت ثابتة كانها تستدعيهِ بالحاح ليذهب فيرى

امَّا هو فخفَّ سريعاً لاستطلاع الامر فرأى في اسفل الصفحة الاخيرة اسمهُ مكتوبًا هكذا « كرنين » فطار لبُّهُ شعاعًا وصاح صيحةً عظيمة ووقع على البلاط مغشيًّا عليهِ

وفي صباح اليوم التالي وُجد جثةً هامدةً لا حراك بها ويدهُ المتشنجة قابضةً على اوراق الكتاب المصفرَّة . . .

وكان زَين يسمع وعيناهُ تتقدان نارًا حكاية الصبيَّة التي كانت تروي بصوت وقيق عذب هذه القصة المفجعة

امَّا راحيل فكانت تحب ان تلحق حكاية شقيقتها بحكاية أُخرى من القصص التي طالعتها في الكتب الافرنجيَّة اي رواية تلك المرأة النبيلة التي وقفت على جثة قرينها المقتول تذرف الدمع مدرارا سخينًا حتى اضطرت نفسهُ التي ارتفعت الى السماء ان تهبط الى الارض لتعزيتها

(ستأتي البقيَّة)

مطبوعات شرقية جديدة

كتاب رحلة الفيلسوف الروماني

يتضمَّن سيرة المسيح وتفسير الاناجيل الاربعة

تأليف الحبر الجليل السيد جرمانوس معقَّد مطران اللاذقية . طبع في الحدث سنة ١٩٠١ ص ٨٢١

انَّ في مطالعة الاناجيل المقدَّسة نورًا امثل المسيحي وحياةً لقلبهِ ومثالًا لسلوكهِ تصرف بهمَّتهِ عن السفليات لتسوق بها الى طلب العلويَّات . على انَّ هذه الاسفار مع سذاجتها الالهيَّة وقربها الى الفهم لا تخلو من المشاكل العديدة التي تعترض على القرَّاء فلولا دليل خبير ينهج لهم سبل الحق لما امنت رجاهم العثار . وقد اتاح لهم الله هذا القائد الامين بالسيد المفضال والحبر العلامة جرمانوس معقَّد الذي انجز بعد شغل شاغل لم يثنِ عزيمتهُ هذا الكتاب النفيس نعني بهِ سيرة السيد المسيح لذكرهِ السجود سرد فيهِ جميع